مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
العدد الثاني/ ديسمبر 2015

Mila Univ center. Publish. Co.

قصة زيد بن حارثة في القرآن بين البناء السردي والمعرفة النسقية

Zaid ibn Haritha story in the Qur'an between the construction of narrative and knowledge systemic

أ. زبير بن سخري
المركز الجامعي الحفيظ بوالصوف ميلة- الجزائر

أ. يوسف عطية
جامعة قسنطينة 1- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2015/02/16 تاريخ قبول النشر: 2015/12/05

الملخص :

ظهرت الكثير من الدراسات التي تهتم بالقرآن كنص لغوي على جميع مستوياته الصوتية والدلالية والنحوية والمعجمية والبلاغية وفي كل تمظهراته، ومن بينها القص القرآني الذي ظهر كشكل معرفي ولغوي في أغلب سور القرآن في أطوال ومقاطع سردية مختلفة من العبارة والإشارة إلى القصص الكاملة البناء. سنولي أهمية لعلاقة الأشكال السردية بالمعرفة؛ أي لماذا أنزل الله المعرفة في هذا الشكل القصصي ولم ينزلها في شكل أحكام مجردة ومباشر وبسيطة، هل حمولة القصة المعرفية تختلف عن الأشكال اللغوية الأخرى كالخطاب المباشر والحوار والخبر، وهذا النمط المعرفي تكرر في كل النصوص السماوية.

إضافة لما سبق هل إشارة الله سبحانه إلى بعض النصوص بفعل القص دلالة كافية على أن القصة في القرآن الكريم أدبية أم أنه إسقاط تاريخي للمعرفة البشرية على تلك التمظهرات اللغوية.

الكلمات المفتاحية: البنية السردية ،القص القرآني، السرد، النسق.

Abstract :

A lot of studies appeared which are interested of Koran text language on all voice and semantic and syntactic levels, lexical and rhetorical and every feature, including mowing the Quranic that appeared as a cognitive and linguistic in most of the verses of the Qur'an in the lengths and clips narrative different from the ferry and the reference to the full building stories. We'll give importance the relationship of narrative forms of knowledge; that is why the revealed knowledge of God in this form narrative was inflicted in the form of abstract, direct and simple terms, is the content of cognitive story differs from other linguistic forms of direct speech and dialogue and story, this cognitive pattern was repeated in all the heavenly texts.

In addition to the above Does God Almighty reference to some texts by the shear sufficient indication that the story in the Koran is literary or is it a historical drop of human knowledge on those language features.

***Key words**: narrative structure, the Quran storytelling, narration, pattern.*

لطالما أشعر بالملل وأنا أقرأ النصوص القرآنية ولكن أداري هذا الملل خجلا ، وأحيانا لا أستطيع حتى قراءة اليسير منه ، وأحيانا أسرع بتبدليه حين يتوسط الأغاني داخل السيارة، مما يوحي لي بأنه ككل النصوص يحتاج إلى الرغبة في القراءة والفهم والقبول، وأتساءل أين إعجاز هذا النص ؟

كل جمعة كنت أقرأ سورة الكهف حتى استظهرتها عن آخرها ، وكنت أتساءل هل تكرار المعاني يميتها ؟ كما يميت التكرار قصص الجدة؟

فزليخا رغبة في النبي يوسف، والنبي محمد رغب في زوجة زيد، والسيدة عائشة اتهمت بالزنا ، وفي كل مرة أكرر فيها السورة، تتكرر معها المعاني نفسها حتى تصبح في حكم العادي ، فأين سر هذا النص؟ وأين سر هذا القص؟

تغيرت الأسئلة المطروحة على النصوص القرآنية الكريمة لتغير المناهج المعرفية؛ لتاريخيتها من جهة ولتاريخية المعنى بالنسبة للإنسان، فالصدق والحب والفضيلة والحنان والرحمة كجواهر لا معنى لها وإنما قيمتها في شكل الصور التي تظهر فيها.

يشير الباحث الجزائري محمد أركون في أكثر من موضع إلى بنية القرآن الميثيولوجية "فالقرآن هو الذي أقر بأفضلية القصص على الأسطورة كوسيلة لتقديم التعاليم الإلهية

المتعالية والعلم الموثوق به كبديل لأساطير الأولين. والقصص هو ما يصفه الأنثروبولوجيون المحدثون بالميث أو "ميثوس" Mythos الذي تميز أو تمايز عن اللوغوس Logos (النطق أو المنطق) منذ ما قدمه أفلاطون وأرسطو من حوار واستدلال وتحليل وبناء على صيغة الأدب الفلسفي والفلسفة النظرية التنظيرية، الاستدلالية الاحتجاجية"[1]، فقد اعتمد في نصوص القرآن الكثيرة العديد من الأشكال الخطابية ؛ من التعاليم المباشرة والصريحة إلى الإشارة والمحاججة والحوار إلى القص والسرد، ولا تتفاضل هذه الأشكال اللغوية من حيث جنوستها وإنما السؤال المطروح ما دلالتها كشكل تواصلي وهل يؤثر هذا الشكل في المعنى؟

إن تعدد المستويات في النصوص السردية جعلها محل شبهة عند الدارسين القدماء، فالشخصيات والزمان والمكان والحوار والأصوات كلها متفاعلة في شكل خطابي واحد داخل وحدة أكبر هي السورة مع علاقات لغوية داخلية، ناهيك عن تراتبات المعاني والمقصود منها ، "ولاحظت أن الوحدة القصصية في القرآن الكريم لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الرسل والأنبياء وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من اجتماعية وخلقية ومن هنا تبينت عد القدماء من المفسرين القصص القرآني من المتشابه"[2]، فالوحدات السردية القرآنية تتباين فيها المعاني اعتمادا على العناصر السردية التي يمكن أن نسجل حضورها أو أثرها في المشهد السردي انطلاقا من اللغة والمجاز انتهاء عند الفضاء والشخصيات ؛ ومدى استجابتها للمناهج الغربية كالشكلانية الروسية ووظيفية بروب وعاملية غريماس...إلخ

1- القصص القرآني والتاريخ :

عاش الأنبياء حياة واقعية ككل الناس تحكمها جدليات طبيعية، غير أنهم يختلفون عن غيرهم في الجدلية ذات البعد الغيبي ، فحياتهم لا حظ فيها ولا صدفة، وإنما تحكمها غاية تمثلت – في الغالب – في إيصال معاني وأنظمة جديدة للناس لم يألفوها من قبل ، فكان التمايز يطبع حياة كل نبي مقارنة بالآخر لاختلاف الأقوام من حيث النشأة والموقع والتاريخ ، فلا نملك تاريخا مضبوطا عن بداية التواصل بين السماء والأرض في جدلية اجتماعية عدا بعض الأساطير القديمة وإشارات الكتب السماوية، ولكن تلك تجارب مرت ونسيت ومنها ما لم يسترجع في مقاطع قصصية سردية "**وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)**" سورة البقرة، الآية 164،"

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)"، سورة غافر، الآية 78 .

فهل ضاعت تلك القصص التي يذكرها الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم ، ولماذا أهملت وذكر غيرها ؟

الأكيد أن الفرق لا يكمن في جودة اللغة وروعة الأسلوب ، لأن السارد واحد وهو الذي ينقل الأحداث من الواقع إلى اللغة ، ولكن الفرق يكمن في القيمة ، أي في قيمة النص داخل المنظومة القرآنية "**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيكَ هذَا الْقُرْآن وإِن كُنت مِن قَبْلِه لَمِن الْغَافِلِينَ (3)**" سورة يوسف، الآيتان 2-3 ، فلماذا يستخدم الله الصفة أحسن بدل أجمل وأروع ؟

هل لانتفاء الأدبية عن القص، أم للمفاضلة بين القص القرآني وغيره من القصص الواردة في مراجع أخرى ، وقد تنافس في ثبوتيتها ومصداقيتها ثبوتية ومصداقية القرآن الكريم ، خاصة وأن تجارب النبوة امتدت إلى القرن السابع ميلادي ؛ فالكثير من الحقائق عن حياة الأنبياء واردة في وثائق تاريخية كحياة النبي عيسى ومحمد عليهما السلام الذين زامنا دولا كبيرة لها أنظمة إدارية وأرشيفية، والأكثر من ذلك أن البحوث الأركيولوجية كشفت عن شخصيات الأنبياء في الكثير من المواقع ، النبي نوح في ملحمة "غلغامش " المكتوبة بالخط المسماري ، والنبي ابراهيم في أثار مدينة أور ، والنبي موسى ويوسف في المدونات الهيروغليفية...

تختلف الوقائع التاريخية كثيرا عن المقاطع السردية ، فالأولى عالم حقيقي والثانية عالم لغوي، وما يلحق علم التاريخ الآن من إشكاليات منهجية راجع إلى هذا البون الأنطولوجي، فالباحث طه حسين نفى مرجعية القرآن بالنسبة لقصص الأنبياء[3]، لأن القرآن لم يحك حياة الأنبياء بالتفصيل ولعدم توافق هذه الشذرات السردية مع منهجية البحث التي لا تؤمن بالغرائبية.

إن عملية استرداد الواقعة النبوية من الماضي المنسي(في بعده البشري) في شكل سردي لغوي عربي هي التي توصف بالـ "أحسن" ، حيث تمت المحافظة على شروط الواقع كما جرت أحداثه في بعد لغوي يستحيل على البشر استرداده في مثل هذا الشكل، ناهيك عن الاختلاف اللغوي بين شخصيات الواقع الحقيقي ولغة تجلي الحدث (مما قد يفتح في

المستقبل سبلا أمام الترجمة الإلهية وفق قواعده الكلية)، "فالسرد المختلط حسب أفلاطون... يحاكي مادة غير لفظية تقتضي منه عرضها قدر استطاعته ومادة لفظية تتولى عرض نفسها بنفسها وتكتفي في أغلب الأحيان بمجرد الإلماع والإحالة. إن من واجب واجبات المؤرخ – السارد عندما يتصل الأمر بسرد تاريخي أمين إلى حد الصرامة أن يتحلى بحساسية ما تجاه أي تغير يطال النظام، وذلك لما ينتقل من المجهود السردي في العلاقة بين الأفعال المنجزة إلى التدوين الآلي للكلمات المتلفظ بها، لكن حينما يتعلق الأمر بسرد خيالي، إن جزئيا أو كليا، فإن اشتغال التخييل الذي يقوم في الحقيقة على المحمولات اللفظية وغير اللفظية ، لا بد أن يروم تقنيع الفرق الحائل بين نمطين من المحاكاة ، واحد منهما...له ارتباط مباشر بالواقع، أما الثاني فيعمد إلى إدماج نسق متشابك بله معقد"[4].

كيف ننتقل من واقع مادي مجرد يحكمه قانون تفاعلي إلى واقع لغوي شعوري (كون اللغة الإنسانية في بعدها المعنوي تعتمد على حواس الإنسان وتجربته الشعورية) مع نقل الحقيقة الواحدة؟

لا يحكي السرد الواقع فقط، ولا يحاكيه، بل يقيم تواصلاً مع الرغبة[5].

البون شاسع بين المعرفة التي يتضمنها الخطاب العلمي ومعرفة الكتابة الإبداعية ، ففي الأولى ملفوظ وفي الثانية تلفظ ؛ فالملفوظ إنتاج، إنه كيان جامد لا روح له، أما التلفظ فهو طريقة وشكل وتصور في الإنتاج، إنّه انفعال إنساني وإمساك بأحوال الذات وتفاعلها مع نفسها وما يحيط بها، فالعرضي الزائل يتحول إلى لحظة خالدة في التاريخ الإنساني.[6]

كما تتصادم النصوص القرآنية مع الواقع التاريخي البشري؛ تسليما الله أكثر ثقة وضبطا من الأدلة البشرية المادية، لكن منهجيا قلما يجتمعان، فالكثير من الأنبياء الوارد ذكرهم في القرآن الكريم عاشوا في مجتمعات تعرف الكتابة والقراءة ولكن لا ذكر لهم أو حرّف تاريخهم، فالرسول محمد بن عبد الله الذي عاش في القرن السابع ميلادي نعرف حياته قبل البعث في شكل خرافي في الكثير من المواضع، وحتى بعد البعث، فيما يشير القرآن إلى حقائق أخرى مغايرة تماما، فالنسق الثقافي الذي يكتب ويدون التاريخ وفق منهجية لا يسلم دائما من الأباطيل التي تتداول كحقيقة مطلقة.

2- القصص القرآني والمعرفة النسقية:

يشير المفكر الفرنسي ميشال فوكو إلى مفهوم الإبستيمي، وهي الوحدة الفكرية الضمنية التي تحكم معارف عصر من العصور[7]، لم يكن هذا مطلب المفسرين للقصص القرآني بل كانوا يبحثون عن تاريخ شخصيات القرآن كما في الإسرائيليات أو يستنبطون منها الأحكام والغايات الخلقية دون مراعاة لاختلاف المجتمعات وتجاربها التاريخية، فقد يستنبطون أحكام الأسر والأغلال من بني إسرائيل ويسقطونها على المجتمعات المسلمة القديمة والجديدة[8]، ومن المتأخرين من اهتم بالحكم والغايات وجعلها جوهر الإعجاز القرآني كمطلقات للحجاج ونشر الدعوة ، "ولا حظت أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ الذي لا حكم له وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان ومن هنا تبينت أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ وهي غير مقصودة وأهملوا المقاصد الحقيقية للقص القرآني، ولو أنهم شغلوا أنفسهم بتلك المقاصد الحقة لأراحوا أنفسهم من عناء كبير ولإبراز الجوانب الدينية والاجتماعية من القصص القرآني إبرازا ملموسا يثير المشاعر والعواطف ويؤثر في العقول والقلوب، وعند ذلك كانوا يمكنون للدين وقضاياه ويسيرون وهدى القرآن الكريم "[9] ، فقد جاء بحث محمد أحمد خلف الله في الأربعينات من القرن العشرين في ظل نهضة فكرية عربية بالكاد بدأت في العلوم الإنسانية لكنها لم تحدث قطيعة ابستمولوجية مع التراث ودراساته، فنجد عمله الموسوم" الفن القصصي في القرآن الكريم" بقدر ما يبتعد عن الغايات التراثية، يحاول أن يجعل من القصة القرآنية قصة فنية سايرت في تطور بنيتها دعوة النبي محمد، وقسم القصة إلى عناصر فنية؛ لكل عنصر أبعاد وغايات .

لا يحسن بباحث يعتمد النص القرآني كمدونة أن ينفي منهجية على حساب أخرى، فالمناهج التي تقارب الحقيقة تاريخانية كغايتها المنشودة، فلا بد من الإقرار بمقاربات تتشد غاية واحدة "ينبغي علي أن ألح على أهمية الدروس المنهجية والابستمولوجية التي نتعلمها من اكتشاف البنية السيميائية أو الدلالية التي تواجه كل أنماط الخطاب الموجودة في القرآن؛ النمط النبوي، النمط الحكمي، النمط السردي القصصي، النمط الترتيلي أو التسبيحي، النمط التشريعي، النمط الإقناعي، النمط الجدالي أو الصراعي والنمط الاستهزائي "[10]، فالقرآن كنص لغوي خارج التجنيس الأدبي البشري كونه نصا ذي أبعاد غيبية في إحدى شروط إبداعه ، ومن ثم كان يمكن اعتبار النص القرآني كهيولى دلالية

تشكلنها المناهج المعرفية في إطار أنساق ثقافية وحضارية ، ونعود إلى جوهر المداخلة ، لماذا اعتمد الله عزّ وجل النموذج السردي القصصي في نقل بعض المعاني ؟

يقول عزّ وجل " **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيك هذَا الْقُرْآن وإِن كُنْت مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)** "،سورة يوسف، الآيتان 2-3 ،اعتمادا على منهج ياكبسون التواصلي، نقر بأهمية القناة في عملية التواصل ، فالوحي أسبق من التمظهر اللغوي في شكل آيات وسور، لا تهمنا طبيعة الوحي من حيث هي معنى، بل نتساءل عن الإمكانيات اللغوية المتاحة للرسول للتعبير بها عن الوحي، فرغم قدرة الله الكبيرة في الخلق وحرية التصرف إلا أنه يمظهر وحيه في الأجناس اللغوية البشرية وإلا كان نصا غير تواصلي، والدليل على ذلك بدايات بعض السور التي تبتدئ بمقاطع صوتية وما أحدثته من استغراب واستفهام حول المقصدية منذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم .

إذن فالقصص أو السرد ضرورة أنطولوجية لتمظهر الوحي في أي لغة نزل بها، وهو لا يتمايز عن التمظهرات اللغوية الأخرى إلا في كيفية نقل المعنى. فالفروع المعرفية الحديثة الآن كعلم الاجتماع والفلسفة والعلوم الطبيعية والدقيقة لا تستطيع اعتماد السرد أو القص كتمظهر لغوي لقوانينها المجردة، بل لها تمظهراتها اللغوية الخاصة والقادرة على نقل المعلومة كما هي في بعدها المادي والمجرد، وهذا ما أثبتته الدراسات السيمائية التحت-لسانية والفوق-لسانية، فالنص السردي يندرج ضمن الثاني حيث العلامة تطور ثقافي؛ أي أن هناك أنساق ثانوية تضمينية مؤسسة على اللسان ولكن غير متطابقة معه[11] ، تجعل من النص ينفتح ويتجاوز العلامة اللغوية المعجمية والتركيبية، فالقصة القرآنية بنية فوق لسانية بتميز .

يعود الإشكال في الإجابة على أهمية السرد أو القص كتمظهر للوحي إلى مكانة القرآن عند المسلمين وما طبيعة علاقة هذا النص بحياتهم على جميع الأصعدة وخاصة الوجودية منها، ومدى علاقته بأنظمة الحقيقة في الحياة، فغدت الكثير من قراءاتهم مختلفة إلى حد التناقض الذي يشوه الأصل.

نعتقد كمسلمين أن أي إشكال يصادف الإنسان، أو أي سؤال نطرحه له إجابة صريحة أو ضمنية في القرآن، مما يجعل حياتنا عبثية وجهدنا غير معتبر بالنسبة لذواتنا فيما يخص حياتنا، لا يقابل القرآن حياة كل فرد منا، بل هو مقابل موضوعي [12] لحياة

الإنسان منذ وجد في تفاعل بين الطبيعة والكون ، وما القرآن ذاك النص التعبدي المكرور في صلواتنا بل هو الرسالة الموجهة في كل زمان وكل مكان إلى الإنسان والمجتمعات الإنسانية على اختلافاتها المتعددة والصارخة؛ حيث تلتقي فيه الجواهر الإنسانية لا التمظهرات الأيديولوجية أو السياسية أو الثقافية، من ثم كان لزاما أن تبتعد القراءة القرآنية عن الجماهيرية والرؤى الضيقة وتنفتح على الخطابات المعرفية المختلفة والمتحاورة حيث يبتعد القرآن ضمنيا عن معانيه الحرفية المتأولة وفق التجربة الفردانية .

أول الأسئلة التي يجب طرحها لماذا اعتمد الله شخصية النبي في العديد من قصصه لتبيان قيمه المراد توصيلها، أو لماذا هي شخصيات في الغالب لها علاقات بالرسالة السماوية ؟

لماذا ليسوا أناسا عاديين؟

فهل يخلو التاريخ الإنساني من مثل مشابه لحادثة زليخا مع النبي يوسف ، أو اتهام امرأة بالزنا ظلما وبهتانا عدا السيدة عائشة ؟

ولماذا هذه التراتبية الزمنية في ظهور القيم من مجتمع إلى آخر على اختلافات مجتمعات الأنبياء من حيث التكوين الثقافي والنفسي ؟

فهل ما حدث للنبي مع زوجة زيد كان مرفوضا قبلا وننتظر البعثة المحمدية حتى يسمح بمثل هذا الزواج ؟

فهل كانت المعاني الإلهية بحاجة لأبطال حتى تتجسد وتقبل، فلو أمرنا الله مباشرة بسماحه الزواج من نساء أدعيائنا، أليست أوضح من ذكر حادثة زيد مع الرسول "**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37)، سورة الأحزاب، الآية 37**؛ فالنبي من حيث حضوره في فعل القص السردي لا يمثل الخارق والخارج عن التاريخ ، بل هو الإنسان المعنوي الكامل الإنسانية في عصره لا من حيث نيله الاصطفاء الإلهي (حتى لا نعتقد فيه المجانية أو الاعتباطية) فالله قادر على اختيار أي إنسان، ولكن الاصطفاء يكون لتجربة النبي الخاصة به كإنسان[13]حيث يمارس ذاته في البحث عن المعنى الإنساني عبر التاريخ، من ثمّ كانت التجارب البشرية المختلفة موضوعا للقرآن الموجه خصيصا للعرب في القرن السابع الميلادي، ثم ينفتح

التخصيص إلى كل الشعوب اعتبارا من القرن السابع الميلادي وبالضبط من وقت تأسيس دولة الرسول محمد بن عبد الله، فالخطاب المباشر خطاب قانوني سلطوي تنظيمي معزول عن أي نظام وفيه ممارسة ذاتية كالإرث في الإسلام، عكس الخطاب المشروط بنظام حيث ينقل في صيغ سردية قصصية مفتوحة على عالم النص القرآني الداخلي والخارجي، والعابر بقيمه الثقافات والمجتمعات ما إن توفر ذاك النظام، فالنص السردي يحمل معرفة نسقية تأويلية من حيث القيمة التداولية، ففهمنا للقصص القرآني يختلف عن فهم الصحابة وعن فهم فرقة الشيعة مثلا، أما من حيث مشروطية النظام فهي تتوزع على كامل عناصر القصة وفي كل مستوياتها اللغوية والمعرفية، فـ"زيد بن حارثة " كشخصية في تلك الشذرة السردية يتحول إلى رمز منفتح على التجربة الحقيقية لذاك الرجل في واقعه الحقيقي وليس شخصية ورقية كما يقر عالم السرد بريمون؛ حيث طرح لنا القص القرآني إشكالا كبيرا أثناء مقاربته وفق المناهج النصانية التي تعزله عن الثقافة التي نشأت حوله، فاليابابي المسلم الذي لا يلم بأسباب نزول القرآن، ماذا تمثل له كلمة "زيد" ؟عدا أنها اسم عربي ، فهل النسقية هنا شكلية أم ثقافية وجودية ، ومن يحدد طبيعتها ، المنهج أم النص القرآني؟

فالمعرفة النسقية المفترضة وفق بيئة التلقي الحالية –حتى لا تحدث قطيعة ابستمولوجية مخلّة بنظام المعنى عند المسلمين –هي الإلمام بالنسق الحضاري والمعرفي والإجتماعي والنفسي المحيط بالحدث الذي يظهر القيمة للمنهج المعرفي في ذاك الشكل حتى تكتسب بعدها النسبي التداولي المتغير من حيث تكافؤ عناصر اللغوية في الظهور وتداخلها في نظام معنوي مشروط لكن دون قيود دقيقة بقدرما تحافظ دائما على حضور معنى ما .

3– تظافر الأنساق في قصة زيد :

كان السرد أو القص هو النموذج الأقرب للمزج بين ما هو إلهي، صريحا كان أو ضمنيا مع الواقع البشري وذاك ما أشار إليه أفلاطون وأرسطو في علاقة المحاكاة بالسرد [14]، فالنص السردي هو الأقدر على نقل التفاعل الوجودي بين الحاضر والغيب فيما يخص قيمنا ضمن شروط نسقية لا تضبط بقدر ما هي منفتحة باستمرار على التأويل في إطار إبستيمي قيمي يخص مكانا وزمانا دون بقية الفضاءات، فالآية الكريمة تنقل نسقا قيميا كاملا مشروطا لظهور المعنى والقيمة،" **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ**

أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37)، سورة الأحزاب، الآية 37 ، كل عبارة تبرز علاقة في الواقع، حيث نقسم أولا النص إلى قسمين :

يجب التنويه إلى أن طبيعة القص القرآني تختلف تأسيسا على ما يعرف بالقصة الأدبية، فالقص القرآني عادة ما يأتي في شكل شذرات، ضمن سياقات لغوية تمهيدية وعلائقية بتجربة النبي محمد بن عبد الله؛ أي أنّ هذه الشذرات تتجاوز واقعها التاريخي إلى واقع تاريخي جديد مقصود.

القسم الغيبي :

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، تَخْشَى النَّاسَ ، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، زَوَّجْنَاكَهَا، زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

القسم الواقعي :

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ، أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا، زَوَّجْنَاكَهَا ،

يمكن تقسيم الآية إلى عبارات واقعية وأخرى غيبية من حيث بؤرة السرد، فالحقيقة في شقها المخفي هي نفسية محمد في هذا الموقف وهي جزء مهم في حقيقة الحدث كاملا وربما هي الملمح الإنساني القانوني الشرعي الذي من أجله نزلت الآية عكس القراءة التراثية التي تحرم التبني، فالملمح الإنساني أي الإنسان كمفهوم تغير عبر التاريخ، وأصبحت حقيقة الإنسان هي ذاته عدا علائقها القانونية التي تؤطره اجتماعيا؛ فالظاهر أن علاقة محمد بزيد علاقة تفضل من حيث الرزق– وهذا مظهر اجتماعي ساد في الإسلام كنقلة نوعية من نظام الرق إلى نظام الموالي؛ مما يوحي بمدى تجذر الاجتماعي وأثره على المعنى الإنساني التاريخي الذي أراد الله أن يتجاوزه إلى ما هو إنساني جوهري حقا– مما يوحي بإلزامية قول " **أمسك عليك زوجك واتق الله**"؛لأن شروط المشابهة بالولد توفرت في فضل الإنعام الذي يكون في إطار البيئة الثقافية والطبيعة الاقتصادية للمجتمع العربي من حيث نسج العلاقات، فلو لم يكن محمد يعيل زيد لما كان له أن يرى زوجة زيد التي نالت إعجابه، هذا ما يبدو في الواقع لكن العبارات الأخرى تفتح عالما موجودا غير مرئي في ذاك الوقت وهي البعد النفسي الذي أضحى ضرورة ملمحية قانونية في ظل الخطاب الصحي المعاصر، حيث سبّق الله إنعامه حتى ينزع الطابع الأبوي عن إنعام محمد

استعماله الفعل " أمسك "كتسلط ليست غايته القهر بل الإصلاح بمقتضى الولاء والنبوة ، و" اتق" كمداهنة سلطوية دينية عكس الحقيقة النفسية التي يعيشها زيد وهي الرغبة في الانفصال، العجيب في هذه الآية أنها لم تقف عند سبب الطلاق، وهل كان ضرورة أم خلافا بسيطا ويزول بين الزوجين؟ أظنه كان ضرورة لا من حيث هو شرط لتمام وظهور الآية؛ فلو لم يطلق زيد زوجته لما بيّن لنا القرآن حكم الزواج من الأدعياء، فالله يملك من الإمكانات الواقعية والسردية ما يمكنه من نقل المعنى في أي صورة، ولكن ضرورة الطلاق كانت قانونية شرعية بين زيد وزوجته وإلا ما كان محمد يرغب فيها وكان الأجدر أن يصلح بينهما، وهو من هو، وهما من هما، فحتى يحرر الله محمد من ربق القيد الاجتماعي سبّق إنعامه على إنعام رسوله، لأن زيد كائن كامل الحرية كما محمد كامل الحرية، وما يمكنه من طلاق زوجته هو الحرية المكتسبة من إنعام الله وليس من إنعام محمد ، فلا يحق لمحمد أن يسلب زيد حرية الفعل مادام لا يملك فعل الإنعام في مطلقه، فبراثن العبودية الاجتماعية وفعل الإنفاق والإنعام هو من أخرج العبودية من علاقة اجتماعية اقتصادية بحتة إلى علاقة استلاب نفسية، أراد فيها محمد أن يساير مجتمعه ، غافلا عن الإجابة عن سؤال طرح بينه وبين نفسه ، لو طلق زيد زوجته ، هل أملك من الشجاعة أن أتزوجها وفق ما يقتضيه الشرع ؟

محمد لا يجهل الإجابة ولا يجهل معنى الإنسان، ولكن من كان في ذاك الوقت يستطيع إفهام الناس أن الأرض كروية لو كان يعلم ذلك؟

ثم ترد العبارة " فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا"، وبقدر ما توضح النص تزيده غموضا لأن الأنساق الضمنية المساعدة على القراءة متداخلة ويعسر جدا فصلها أو ضبطها بنيويا في عناصر متناهية ، بل الاعتماد على علاقاتها الظاهرة فقط ، فلم يشر الله إلى طلاق زيد بل قال قضى منها وطرا هذا من جهة، ومن جهة أخرى قابل قضاء الوطر بالزواج ، دون تناسي دلالة " لما " الزمانية ، كما كرر عبارة قضى منها وطرا بصيغة الجمع في نهاية الآية .

الوطر في اللغة يعني: كل حاجة كان لصاحبها فيها همة، فهي وطره، قال ولم أسمع لها فعلا أكثر من قولهم قضيت من أمر كذا وطري، أي حاجتي،... قال الزجاج الوطر في اللغة والأرب بمعنى واحد، ثم قال الخليل الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة، فإذا بلغها البالغ قيل: قضى وطره وأربه...[15] ، مما توحي به دلاة الكلمة المعجمية أن نهاية

العلاقة بين زيد وزوجته كانت نهاية حتمية نفسية قبل فعل الطلاق، إذ لم يتعد هذا الزواج قضاء حاجة أو رغبة وقد انطفأت في نفس صاحبها، وهذا أكبر ملمح نفسي تعاني منه البشرية اليوم فيما يخص علاقة الجنسين، فقد بني نظام المعاشرة في الثقافة الغربية كما في الثقافات القديمة على مدى توهج الرغبة وانطفائها، فيما أن الزواج وفق ما يقتضيه الشرع هو إبعاد المرأة عن هذا القانون البيولوجي الحيواني الذي هو بطبيعته متذبذب، ولا أدل على ذلك من علاقات النبي مع أزواجه ولم يجرؤ على طلاقهن رغم معاتبة الله لهن، فمقابلة زواج الرسول من قضاء الوطر هي دعوة ضمنية لتصحيح المفهوم قبل الزواج العيني، فعبارة "أمسك عليك زوجك واتق الله" لا تتعدى جارحة اللسان فهي ملفوظ دون أثر تداولي ، وقد سبقت الآية37 الآية 36 التي تضبط علاقة الرسول بغيره من المسلمين "**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا(36)**"، سورة الأحزاب ، الآية36، فهل تجاوز زيد لأمر النبي ضلال مبين، ثم تأتي عبارة "**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**" حيث تقوم علاقة تركيبية مع العبارة الأولى نحويا هي الحالية ودلاليا هي الإتمام حيث ما أمر به الرسول لزيد ليس من قضاء الأمر؛ لأن الرسول لم يكن صريحا كفاية فيه، ولكن موقف محمد النفسي كان بدافع الحرج وهذا طبيعي، كيف تبين لرجل تجمعك به صلة صداقة أو قرابة الرغبة في زوجته قبل أن تطلق، ومن ثمّ أظن أن المخفي ليس رغبة الذكر في الأنثى بل هي رغبة الزواج لتصحيح الفعل ولكن الظروف حالت دون ذلك ، فتدخلت الفاعلية التي أزاحت فاعلية الرسول من أجل الغاية الوجودية، وقد تطابق التصحيح مع الفعل العيني وهو الزواج من زوجة زيد، فرغبة محمد لا تختلف عن رغبة زيد اتجاه امرأته من قبل، ولكن رغبة زيد هي من أطرت علاقته بزوجته، ولكن رغبتك أنت يا محمد يؤطرها مفهوم الزواج في هذا الدين الجديد وأنت أعلم بذلك، وتخفي شعورك الذي هو حقيقة أقوى من الحقيقة التي صنعتها جدلية مادية اقتصادية كالذي يشعر بتملك أبنائه من منطلق أنه كان سببا في إنجابهم والنفقة عليهم، وتجعل قيمة إنسانية على محك الناس بدل أن تحكم الله في القيمة و هو الحق، من ثم لم تتوفر لمحمد القدرة الاجتماعية على كسر ما يعتقد بصحته ويمتنع عن الزواج الذي هو العلاقة الطبيعية لمثل تلك الرغبات فيزوجه الله إياها عنوة "زَوَّجْنَاكَهَا" حيث جاء الفعل مضاعفا للدلالة على التعدية بمؤثر خارجي التي هي إرادة الله التي حولت فاعلية محمد إلى مفعولية ويستوي

كإرادة حرة تخلى عنها مع زوجته المرأة الموضوع – فهذا التشاكل النحوي الدلالي يعكس مدى تلاصق الأنساق الضمنية داخل شذرة قصصية لا تتعدى بضعة أسطر– وليكسر ذاك النسق التراتبي الاجتماعي ويبدله بنسق بيولوجي نفسي جديد يحتكم إلى القيمة الإنسانية ، سيكون عماد المجتمعات الحضارية الجديدة، يمكننا أن نحصر الشروط التي صنعت هذا المعنى القيمي لذاك العصر في العناصر التالية : تراتبية اجتماعية ودينية (محمد من بني هاشم ونبي، زيد من الموالي)، تراتبية اقتصادية، منظومة قيمية سلطوية تاريخية لا معرفية ،إن الإشكال الذي تجلى هنا كان في عنصر "الدين" فلو كانت نفس الشروط دون دين لما وجد محمد حرجا في مثل هذا الزواج، فهل يأنف العرب الجاهليون من تزوج طليقات مواليهم، ربما يطلقونهن عنوة ويتزوجنهن، لكن حضور الدين طبع العلاقة بالإنسانية المفرطة التي تشوش العلاقات والحقيقة الإنسانية التي يقرها الله ولا أحد غيره. فهل ننتظر توفر مثل الشروط والعلاقات حتى يتحقق المعنى ؟ أم أنه يجب المسك بالابستيمي القيمي أولا ولا تهم الشروط ، فلو يربي أحدهم فتاة صغيرة وهذا السلوك منتشر كثيرا في المجتمعات الغربية، وحين تكبر يرغب في الزواج منها، لكن اجتماعيا الأمر مرفوض، هل يرفض الزواج منها إنسانيا أم لحقيقة قيمية يحكمها الله دون غيره ؟

ربما لا نشعر بحاجتنا الماسة إلى الإجابة ولكن من يعش حدثا مشابها فيستغلق عليه شعوره وضميره ، كان الأولى بالبحث المعرفي الديني أن يحرره مما هو تاريخي ونفسي وثقافي والاحتكام إلى قانون إلهي متعالي .

ختاما لو أردنا أن نضبط الأنساق المتحكمة في فعل القراءة لهذا النص المقدس، لاعتبرنا النسق اللغوي أهمها من حيث العلاقات التركيبية اللغوية، وعلاقات الآيات القبلية والبعدية، نظام الشذرات في القرآن الكريم والنظام التمثيلي لتوضيح المعنى، النسق الثقافي وما سجلته كتب التراث من تشكيلات لغوية حول قصة زيد بن الحارث وظروف زواجه ، وعلاقته بالرسول ، النسق النفسي التاريخي، النسق الاقتصادي الاجتماعي ، حيث لا تحضر كل الأنساق بنفس التجلي ولكنها تتظافر في مقاربة قراءة دون أخرى حسب التغيّ المقصود.

يعتبر النموذج السردي القصصي التمظهر اللغوي الأقدر على نقل المعرفة النسقية المتسعة باستمرار والمشروطة بالإنسان والزمان والمكان، وهو النموذج اللغوي الأقدر على المحافظة على صفة إطلاق القرآن الكريم وكرمه بتجدد معانيه لكل زمان ومكان .

الاحالات والمراجع :

[1]محمد أركون. القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني .ترجمة وتعليق هاشم صالح . دار الطليعة . بيروت – لبنان . ص 87.

[2]محمد أحمد خلف الله. الفن القصصي في القرآن الكريم. مع شرح وتعليق خليل عبد الكريم . نسخة إلكترونية. ص ص 36–37 .

[3]انظر: نصر حامد أبو زيد. النص والسلطة والحقيقة. مركز الثقافي العربي. الطبعة الرابعة. ص32 .

[4]طرائق تحليل السرد الأدبي ، دراسات . جيرار جينات .حدود السرد . ترجمة بن عيسى بوحمالة .منشورات اتحاد كتاب المغرب .سلسلة ملفات 1992.ص 74.

[5]جمال الدين بن الشيخ. الف ليلة وليلة أو القول الأسير. ترجمة محمد برادة وآخرون . القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. ص16.

[6] انظر: أومبيرتو إيكو. حاشية على اسم الوردة . ترجمة وتقديم بن كراد. دار كرم الله. ص ص 8– 9 .

[7]انظر :ميشال فوكو. حفريات المعرفة . ترجمة سالم يفوت. الطبعة الثانية. بيروت، لبنان. المركز الثقافي العربي، 1987م .

[8]انظر: محمد أبو القاسم حاج حمد. العالمية لإسلامية الثانية. دار الساقي. الطبعة الثالثة 2012م.

[9]محمد أحمد خلف الله. المرجع السابق. ص 37.

[10]محمد أركون. المرجع السابق. ص36.

[11] انظر: جان ماري سشفاير. العلاماتية. العلاماتية وعلم النص. ترجمة وإعداد: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري. 2009، ص 24.

[12]انظر: أعمال محمد أبو القاسم حاج حمد. العالمية الإسلامية الثانية. ابستمولوجيا المعرفة الكونية . منهجية القرآن المعرفية.

[13]انظر: علي مبروك . النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ . دار التنوير. بيروت – لبنان. 2007 م. ص، 35.

[14]انظر: جيرار جينات. المرجع السابق. ص ص 70–74 .

[15]ابن منظور. لسان العرب. دار المعارف. المجلد السادس. مادة: وطر. الصفحة 4866.